في الشوارع

قصة

بقلم ادوار الخراط

كانت العينان اللتان تنظران اليه فاسيتين ، معاديتين ، يعرفهما طول عمره . تواجهانه ، بصمت ، من غير لفتة . ولا يريد أن يرد عليهما .

وكان مس الموسى ينزلق على صفحة وجهه الغارقة في رغوة دمثة . معجون الحلاقة له لذعة خفيفة على الجلد ، احتكاك الموسى بوجهه ناعم نظيف مريح. وفي الحمام هدوء ضوء الصبح النائم ، ويأتيه فحيح البوتاجاز خافتا من بعيد ، تحت ماء يغلي في امان . وقد انجابت فرقعة اوتوبيس المدرسة من قليل ، وذهب يحمل الاولاد وهو يعوي بزمارة دعية صخابة ، ويرتج لمروره زجاج البيت .

ربنا يستر . لعله لا يطلع عليهم في الطريق ، وتحدث حادثة .

هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل ، ولكنه ، بشكل ما ، ينعمه ويصقله ويغطيه ، لا يذيبه ولا ينساه ولا يتجاهله ، بل يقبله ولكن يدفعه بعيداً تحت طبقات اخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من انه لن يحدث شيء . وماذا بوسعه ان يفعل ؟ كل الناس تتكلم ، ولكن الصحف والاذاعة والتلفزيون لا تقول شيئا ، باصرار . لا أحد من معارفه او اصدقائه او اقربائه رآه رأي العين ، او سمعه بالفعل بأذنه . كل الناس سمعت من مصادر ثقة ، كل الناس عرفت من اصدقاء واقرباء لا يمكن ولا مصلحة لهم ان يكذبوا او يروجوا اشاعة لا اساس لها . سلطات الامن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب حقيقة الامر ، ولكنها تحرص ان يكون ذلك من غير اعلان ، حتى يأتي اليوم المشهود .

وهو لا يكاد يصدق . او يصدق . ولكنه لا يعتقد ان الامر يمكن ان يتعلق به او يهمه مباشرة . قد يكون صحيحا . لعله فعلا يمر بالشوارع ، هناك ، بعض الشوارع ، ولعله فعلا يهاجم الناس ، ويقع المصابون ، ما من احد رأى شيئا حقا . ولم يظهر في طريقه على اي حال ، ولا طريق الاولاد في المدرسة .

صحيح انه التقى ، بمحض الصدفة ، باثنين او ثلاثة من معارفه القدامى . وكانت الاخبار قد ترامت اليه انه اعترضهم في الشارع، وان شيئا ما قد حدث . اصابتهم جراح، ويقولون انهم يحملون آثار تشوهات . لكن لم يكن يبدو عليهم شيء ، لا اثر لجرح، أو صدمة. لعلهم يحسنون اخفاءها .

كانوا حريصين على ان يظهروا بمظهر طبيعي جدا ، طبيعي اكثر قليلا مما يمكن لك أن تنتظره . وسلم عليهم هو أيضا ، بحرارة اكثر قليلا — قليلا جدا — من المعتاد ، وتبادلوا التحيات والمجاملات وانهوا ما هم بسبيله ، وانصرفوا . لم يشيروا الى شيء ولو من بعيد، لم تجر كلمة بينهم عن الموضوع كله . هل في نظرتهم شيء بعيد ، غائب ، او مكتوم ؟ ربما كان هذا كل ما في الامر . وهم يستحقون ما وقع لهم على اي حال — ان كان قد وقع لهم شيء . لماذا يتصدون له ؟ لماذا يخرجون اليه ؟ ما لهم هم ؟ فاذا كانوا قد ذهبوا اليه ، في سكته ، عمدا او عن غفلة ، فلعلهم كانوا قد حسبوا حسابهم ، من الاول. ونالوا جزاءهم على كل حال. كانوا اذن قد قبلوا المخاطرة والنتيجة الضرورية للمخاطرة ، او استحقوا ما يجري للغافلين . ماذا حدث لهم ؟ ما تلك التجربة يطوون عليها نظرتهم المرتدة الى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة ؟ ماذا يمكن ان يحدث — على اي حال — في الشوارع الصيفية الضيقة الغاصة المحروقة المتراكبة بالحر والزحمة ؟ بين الاوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة ، والبيوت القديمة جففتها الشمس واغبرت بتراب خفي عنيد صفحات وجوهها الذابلة المتساقطة الجلود ؟ بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة التي لا تنتهي بالجلاليب والقفاطين والفساتين والملايات والبنطلونات والبلوزات ، بالجزم والبلغ والصنادل والاقدام الحافية ، امام الدكاكين المفتوحة وسيارات النقل الضخمة المشعثة الحمولة ، بين عساكر المرور بعصيهم القصيرة ووجوههم السوداء الغارقة في الملل والعرق ، على الاسفلت المشقق ، وجزر البلاط الضيقة الشريطية وسط الشوارع، والخضرة المصفرة الساقطة ، واوراق الصحف والنفايات المتطايرة واكوام التراب الصغيرة ، بين اكشاك السجاير والبضائع المستوردة، والكتب والمجلات الملقاة على الرصيف بين الانوار والصفافير والسيارات اللامعة ، والتاكسيات المكسرة ، والعربات الكارو والترامواياب وعربات الفاكهة والفجل والجزر ؟ ماذا يمكن ان يكون قد حدث لهم ، ان يكون قد فعل بهم ، في الشوارع ، وفي وقدة الشمس العارية البذيئة وفوانيس النور واعلانات النيون ؟

كانت دفقات الماء الفاتر تنصب على رأسه ومؤخرة عنقه، يجمعها بين راحتي يديه من تحت الحنفية ، ويطس بها وجهه ، ويلقي بها على رأسه ، فلا يسمع الا صدمات الشلالات الصغيرة المفاجئة ، وهو يشهق باستمتاع ، وعنف ، ويجفف وجهه كأنما يكحته ، كأنما يريدان يمحو شيئا لا يرى ، ولا يمحى .

كان الاوتوبيس الضخم ينطلق غاصا بالناس ولكن صامتا، على حافة النيل . وقد فتح الشباك الى جانب وجهه ، وساقاه مرتفعتان في وضع حرج، قدماه على الاستدارة الحديدية الناتئة فوق العجلة الامامية، ناعمة ، مكشوطة بان صدؤها ، والزحمة قد تحولت الان الى نوع من العجينة الثابتة الرخية ، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود

وصراعات الوقوف والتحرك ، وقطع التذاكر ـ او التهرب منه ـ واصطياد المقاعد والتربص بها والبحث عن مواطىء مريحة للاقدام . وفي داخل الكتلة الضخمة المندفعة كأنما رغما عنها ، لا نملك ان نرد حركتها او تطامن من انطلاقها ، كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة ، بل مريحة ، من التماس الوثيق الحميم بين الاجسام التي همدت ـ في نور متراخ ـ وامتت لحظة من لجاجة شد وجذب لاينتهي واحاطت بها جدران ملفوفة ، مصقولة ، توحي بالاطمئنان في قوتها الذاهبة الى غرضها لا تحيد ، هشة ولكن مفولة الذبذبات محكمة الرفائق ، بين زجاج النوافذ السميك المترب الشفافية ، والمقاعد الجلدية البلاستيك اللامعة من احتكاك الاجسام العرفانه ، والاعمدة النيكل الرفيقة المدورة ، والارضية ـ تحت الاقدام ـ تهب وتنزو وتنحط في انسياب متموج يقترن بارض الشارع ويسيطر عليها بثقة .

وقد امتلأ الاوتوبيس بهدير المحرك والانفاس الحميمة الهادئة والتلاصق الذي استقر ، لحظة ، الى نوع من الرضى والقبول ـ ما اندره ! ـ بين الناس بعضهم البعض .

وهواء النيل يدخل اليه ، فجأة ، من على صدر المياه الواسع العريض ، فيغمض عينيه ، ينفحه الهواء بنشفة تملأ قلبه براحة اخرى، كأنها صوفية . وكأنه لم يكن قد اوى الى ذخر من التعلات ، وذكاء الحيوان الذي يريد ان ينتشبث بالحافة، ولا يقع .

في وسط براح المياه الرقراق مركب وحيد صغير أسود ، يبدو من بعيد مشقفا اعجف ، فشرة ضئيلة نحيلة يصعد بها وجه المياه ويهبط ، في رفق . ينبثق منها شراع ابيض مفرود شاهق الارتفاع ممتلىء بالهواء ، روح فوبة عريضة الجناح ، تشق طريقها بتوق ووجد الى السماء الباردة الزرقة ، يحملها جسم هزيل خشبي ضامر تلعب به موجات صغيرة وسط بيه شاسع في سهل المياه الرمادية .

وتحت عينيه شط النيل ينحدر الى التفافات كثيفة محروقة الخضرة من نباتات الحلفاء والبوص ، ورقعة صغيرة ممهدة مزروعة على الشط، باعواد صغيرة من الذرة المهدلة الشواشي ، وخص صغير مكسور من الخوص والطين الجاف ، لا باب له ، وعلى الشط الاخر اهتزازات نور الصبح ، بلا صوت ، بين حيوانات غامضة اليفة فاتمة الخضرة من الاشجار اللفاء العجوز والبنايات المرتبة المنسقة ، ظهرها بعد المسافة والضوء المائي من وحشيتها ، وروضها ، وغسل عنها سوفية الحسابات العارية ، لانت واستكنت ، في نوع من اللدونة الطفلية، تحت نور الصبح وتراوح نغمات الخضرة وقتامة ماء النيل .

ارتفعت صرخة الفرامل فجأة ثاقبة ، كاشطة ، تنوح . لف الاوتوبيس على الشط لفة واسعة ، سريعة جدا ، ومالت الكتلة الضخمة ، في هدير المحرك الذي يثز في ذعر وغضب معا ، واحس العجلات تحته تخرج عن حافة الاسفلت الصلب الامين وتثب، في رجة تهد العظم ، فوق بلاط الرصيف ، وتحتك ، متشبثة ، بتراب الشط الهين القوام . واندفعت من جانبه سيارة نقل، تكركر في ثقل، وقراملها تعول ايضا في صرخة بطيئة ، واطراف حمولتها من اعواد الحديد الصدىء الناتىء تكاد تخترق زجاج الاوتوبيس ، وكتلة الاوتوبيس تنزل على الجسر الطيني، منحدرة بمقدمتها العريضة الى اسفل ، وتدخل تحت كتف من جرف بارز، مجوف، عريض . الارض تحت العجلات التي تدور سريعة تتلمس النجاة والحياة ، لزجة رخوة طينية لكنها تحتمل ثقلها ، حركتها الدائرية الجارحة نهبشها في استماتة ، وقد انحشر سقف الاوتوبيس تحت الكتف الطينية الثابتة ، تخمشه في خشونة ولا تتشدخ مع ذلك ، وتمر غيامة خاطفة من العتمة ، في الفجوة القريبة من النيل ، ولم يعد في العربة الا لحظة صمت كاملة، كأنها الابد ، من غير انفاس ، انجابت فجأة كما سقطت فجأة ، والسائق يدور والناس تهتف وتصرخ وتميل وتترنح ، اذهلتهم المفاجأة وهبت صيحاتهم ودعواتهم الملهوفة ، ملء عيونهم تقلبات متعاقبة من الارض والماء والاسفلت والطين المتماسك ، والسائق يغير السرعة في حمى البحث عن الخلاص ، واليقظة الحادة ، ويضغط على البنزين ويرفع الاوتوبيس بجرمه الثقيل وقوته الدافعة الى اعلى ويصعد ، وتنشبت العجلات الامامية بثبات جديد في منحدر الارض المرتفعة وتزحف مندفعة الى فوق ، على ارض تهدد كل لحظة بالانهيار ولا تنهار، وينشم خطم الاوتوبيس الارض المرتفعة ولكنه لا يمسها ، ينشق منها نفس حياته ورائحة التراب ، ويشهق ، شهقة واحدة متقلبة الزئير ، يزوم في هريره الممتلىء الصدر ، ويزحف الى اعلى ، باستماتة ، والعجلات ترتفع على أرض لا افق لها ، الى حرف السماء تتوغل صاعدة على جرف لا يسقط ولكنه لا يصل الى الامان ، في نفس اللحظة التي تدمدم فيها قعقعة مكتومة ويتخبط السقف بالكف الترابي، ، وينطبق الى تحت فوق رؤوس الناس تحت ضغط الطين الجاف ، وينهوض جرف هش من كتل التراب الجامدة على الشط وتسقط الكتل الصغيرة من غير صوت ويرتفع منها رشاش بطيء ، موسيقى الحركة ، لا شأن له بشيء ، وهناك، فوق ، من بعيد ، على الافق الشاهق الارتفاع الذي لا تصل اليه العجلات في دورانها المتماسك الحرج المصمم الملهوف ، تحت صفحة السماء ، بازاء خلفية العمارات الملونة بالبني المنطفىء والازرق الكبريتي الكابي ، هناك ، وحدها ، متميزة قاطعة الحواف ، عربة تين شوكي، على عجلاتها الخشبية الدائرية الرفيعة الفروع ، اخشاب العجلات مفرغة تبدو من خلالها زرقة السماء ، ورفيقة مشعة من المركز، منفرجة من بؤرتها المكورة الصلبة ، في موسيقى هندسية ثابتة ، واكوام الحبوب النوكية، عالية ، غضة بعصارتها ، نباتات عصية وكثيفة الغنى، لا ببالي، نحديها لا رد عليه ، وبجانبها صفيحة الماء نومض بشعاع لا تطيق عيناه ان تستقرا عليه .

عندما دخل الى ميدان التحرير آتيا من اتجاه كوبري قصر النيل، في نور الصبح العاري الثقيل ، وما زالت قدماه غير متوازنتين قليلا ، لا تكاد تستقران على الارض ، ورفع رأسه ليعبر الطريق ، سمع صوت النافورة لاول مرة ، واضحا في الشمس ، والمياه تسقط على الرخام المفكك المتآكل ، وحفيف التراب في اوراق الشجر الجافة .

كان الميدان ، يحيط به شوارع المسفلتة ويخترقه ممرات متلوية وفسحات من الخضرة الناصلة ، خاويا . ميدان في وسط بلد ريفية ، وبنايات المجمع ، والمنحف ، والعمارات القديمة ، من ناحية ، رازحة كلها ، وقصيرة ، ومفلطحة ، بهائم ضخمة كسول حول الجرن ، مدت كتل اقدامها العريضة ودفنت رؤوسها في كتلة عظامها السافطة الهامدة. ومن الناحية الاخرى اقتحام الهيلتون برشاقة لا حياة فيها ، سوقية جدران مصقولة حادة ملطخة بمساحات مقطوعة من الالوان الجارحة . مياه النافورة تعلو ، في غير همة ، وتقع ، متناثرة القطرات على الحوض المكسور . والمماشي الترابية المتعرجة ، خالية ، عليها اوراق ممزقة ينطاير بها هواء مسف مترب . خلية الاوتوبيسات الحمراء تموج بنحل ثقيل فذر ، تطن ببطء وتزاحم ، لا تدور حول مركز اشعاع ، تتسرب في الشوارع من غير وجهة . اعلانات النيون حمراء زرقاء نومض وتنطفىء ، تسطع باهتة في النور الجامد المحايد ، لماذا اضاؤوها في نور الصبح ؟ وظلال الناس القاتمة في الشمس ، تسير في غير سرعة وهي غير بطء ، محنية ، يحسها قامات سوداء رفيعة رثة هزيلة مجوفة ، في وسط اشعاع رازح شامل ، تختط طريقها الى كتن الحيطان وامن الاثاث والكراكيب والمكاتب والسراير الرثة .

ومرت من امامه ، كأنما تأتي من عالم آخر ، دراجة مسرعة رشيقة يدور بها صبي جنانيني ، ويستدير عسكري المرور ليفتح لها طريقا خاويا لامعا اسود ليس فيه غيرها ، وخلف الولد ، على السلة الحديدية المعلقة بالدراجة ، اكوام شاهقة من الازهار الاثيثة المكتنزة الجسد ، طرية غضة ، يتدفق غنى الوانها في النور ، في لدونة لحم حي وثير ، ورقته ، مقطوعة ، ملفوفة الى بعضها البعض بخيوط خضراء من اعواد

تبات ، اشرطة حمالات تحز في بضاضة البياض وفـــي نداوة الالوان الوردية وتحدي الحمرة اليانعة وكثافة الزرقة المليئة بالعصير ، وخطفت امامه وابتعدت ، في كل مجدها انحسي . كأنما غرق لحظة في طيات جسد امرأة باذخة ، في لحظة الحرارة الاخيرة الناعمة .

كان الجرم الضخم الوديع ، بسنامه الصغير على ظهره ، يأتي من يمينه ، من ناحية باب اللوق ، بين سيارات قليلـــة متباعدة ، تنحرف وتختفي في الشوارع الجانبية ، تتجنب الميدان ، وتسل مـــن تحت اللوحات الخشبية الضخمة ملصقا عليها اعلانات الويسكي والسينمـــا الورقية الممزقة الاطراف . وتراءت له قبلة شرهة بذيئة فاغرة فاهـا ، لا تتحقق ابدا ، بين وجه رجل بنفسجي كامد مخطط ، وامرأة راقـــدة حمراء عارية الساقين تأكل جسدها الحروف المتضخمة المتعرجة .

اقترب منه من الشارع الخلفي عند مبنى وزارة الخارجية القديم ، طويلا ، بارز الاسنان في وجه اسمر نحيف العظـــام ، ووقف بجانبه ، ينتظر اشارة المرور . كان الطريق مفتوحا . هادئا فـــي قميصه الابيض المشمور الاكمام ، ذراعاه مسترخيتان ، تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الاظافر ، في ساقيه رشاقة توحي بقوة خفية ، بمقدرة خارقة علـــى القبض والتملك ، في قدميه حذاء نس مـن قماش حال بياضه الـــى سمـرة .

احس رغبة ان يقول شيئا فالتفت اليه ، وقال بجد :

ـ لماذا لم يضربوه ؟

ـ لا بد أن ياكل .

ـ لا بد أن ناكل ، كلنا ، ونعيش .

ـ الجو حـر .

ـ اول الصيف . الحر جاء مبكرا .

ـ سنعود بالليل لبيوتنا .

ـ وايـن بيتـه ؟

ـ لا بد ان يسير المركب . سواء كان النيل هادئا ام غير هادىء.

ـ سيأتي الليل أبطأ من السفينة . هذا كل شيء .

التفت فجأة ، فرآه . لا يتحرك ، قريبا منه فـــي وسط الطريق ، وحـده .

كان ينظر الى الجرم الضخم قادما مـــن اليمين ، بعيون عاقلـة وشرسة ، يتربص . دون ان تختلج فيه عضلة .

لا يصدر عنه صوت ، لسانه العريض الاحمر المحبب ، مدلى مـن فمه ، مبرد حي مشحون بطاقته ، ساقط من تحت الانف الضخم المفلطح، اقدامه ثابتة لينة على الاسفلت الاسود ، جبهته المرفطة مدورة ، هابطة، وجفناه الثقيلان ينزلان على عينيه ، كأنه نصف مغمض ، مرهق مـــن السفر ، هادىء يعرف سيطرته ، ينتظر بثقة لحظته ، وكأنما تخلخـــل الهواء من حواليه ، وفرغ ، وملأته شحنة جديدة غير مرئية مـــن القوة والتهديد .

واحس صدره يضيق . وألم غير مستبين ولكـــن موجع وضاغط يقبض على عظام ضلوعه ، بخفة ولكن من غير ان يفلته ، ويتهدد ، وتتركز له نقط حادة في مكان قلبه . .

ما زال يخب في فسحة الميدان الواسع ، قادما اليه ، شامخا في كيانه البطيء الناسي ، بنوع من الرشاقة المهتزة الثقيلة ، ينظر من عل الى الامام ، في غير مبالاة .

سمع صوت الهرير العميق الاجوف الخشن ، يتـــردد ويتضخم ، وان كان ما زال في طبقة تحتية مدفونة ، ويملأ سكون الميدان الـــذي تتناوش صمته اصداء خافتة من نفير سيارات وصلصلة تـرام بعيدة ، وحفيف النافورة .

سوف يثب الآن ، وينقض عليه بمخالبه المشرعة الثاقبة الممزعـة ، وسوف نسقط كتلته المدمرة بهجوم مندفع لا يوقفه شيء ، بحيوية خاطفة لا رادّ عليها ، وينطلق الزئير في نشوة الهجوم ، وتنشب الانياب المدببة في العنق الطويل . سوف يختلط الخوار المفـــزع الشاكي الاجش ، بزمجرة النهش والتمزيق المتقطرة دما . ويسقط الجرم الشاهق علـــى الاسفلت ، تحت دفعة الوثبة المنقضة عليه . ولكن تشبث به ، لا تفلته، السيقان القوية القصيرة القابضة بكلاباتها العظميـــة النافذة الـــى مخابىء الحياة بحساسيتها النابضة الخافية التي لا منعة فيها .

سوف تصطدم السيقان والاذرع والضلوع ، وتصطـرع الاجسام ، وترتطم اعمدة العظام ، بلا عقل ، في شراهة الخطف والهبش ، فـــي التظام التخبط والتصادم ، في تصميم الكسر والهصم ، بيـــن تهشم حجارة الحياة المنفوضة ، وضجيج الاحشاء المكنونة مكشوفة فجأة للنور القاتل ، بين صرخة النصر والقتل وحشرجة التشبث بالهـــواء الواهب المحيـاة .

كان ينهج ، وهو يصطدم بالناس ، ويهتفون بـــه ، يمرق بيـــن السيارات وعربات الكارو المتزاحمة ، وتلاحقـــه الشتائم والتوجعات الساخرة ، ويهبط سلالم مترية بين جدران ضيقة مترية ، وتصفر خلفه عساكر المرور ، وتنحرف الدراجات عنه وهي تقرع اجراسها دون توقف، ويتراجع الناس امامه وهم يشورون بأيديهم ويزعقون به .

كان قد رآه . التفى به ، وحده . وفي قلب الميدان .

وعرف الآن ماذا يمكن ان يحدث . ما يحدث بالفعل . وهـو ايضا لن يقول لاحد أبدا .

لكنه عرف ايضا ماذا عليه ان يفعل ، منذ الآن . عرف بقلب راجف قلق . ما يجب ان يفعل ، هل يستطيعه ؟ هل يستطيع ان يقوم بالمهمـة التي قرأها في العينين العاقلتين الشرستين ؟

كيف وصل الى الفورية ؟ لم يكن في ذهنه الا صور متعاقبة خاطفة من التراموايات والناس ، من الزحمة والعربات ، في مطاردة افلت مـن قبضاتها المفاجئة المتهددة ، من صرخاتها وعجلاتهـــا القاسية . انفاسه تقتلع من صدره اقتلاعا . لن تعود ساقاه ، بعد قليل ، قويان علـــى احتماله والاندفاع به ، جريا . الارض تشدهما اليها ، وصدره شـــق ضيق جارح . لكن ذهنه هادىء ، في بؤرة ثابتة من حرارة ساطعة ، يعد عدته لصراع لا يعرف اين يحدث ، ولا كيف يخرج منه ، ولكنـــه يعرف انه سيذهب اليه ، طائعا او برغمه ، ويخور قلبه عندما تطوف بذهنـــه نتائجه ، لا يسلم ابدا بها ، ولكنه يعرف انها محتومة وضرورية ، ايـــا كانت . ويعرف انه ، طائعا او برغمه ، سيخوض غمراته .

العينان القاسيتان تنظران اليه ، من عمق شفاف اجنبي عنـــه ، ما زالتا معاديتين . ولا رد عنده .

كان مسندا ظهره الى الكرسي غير المريح ، يرفع رأسه الى الحائط القديم ، وضلف الشبابيك السوداء . كان الحمـــام يدخل ويخرج ، برشاقة بطيئة هادئة، من اقفاص الجريد التي تحيط بها اوراق اللبلاب، فوق جدار القهوة البلدي . وقد صفت الكراسي في مفرق الطريق علـى الارض المفروشة بالرمل المبلول . وفدة الظهر قـــد خففتها الظـــلال المتراوحة على تعريشة العنب الممدودة، سقفا اخضر مثقوبا في ارابيسك غير منتظم ، فوق الشارع ، على اعمدة خشبية رفيعة حائلة الاغبرار . وجاء الصبي بابريق الشاي المعدني الصغير الازرق المدور ، لم يعد يرى مثل هذا الابريق كثيرا . يذكره من طفولته . كان ابريقه هو ، لا أحـد آخر يشرب منه الشاي . شاي طازة جديد ، وكوب سخن ثلثه مـــاء سخن ، وملعقة صفيح غارقة فيه ، وسكر فـــي منفضة سجاير زجاجية مضلعة . هذه قهوة نظيفة ، معتنى بها ، حسنة الاضاءة .

ـ أهلا وسهلا . شرفت المطرح يا فندي .

ـ أهلا بك . الله يشرف مقدارك .

ـ نورت الفورية .

ـ منورة بكم وبالجدعان .

ـ رايح القلعة ان شاء الله ؟ خان الخليلي ؟

ـ أبـدا والله . مشاغل .
ـ ربنـا يعين .
ـ سمعت الاخبار ؟ ماذا حدث في الميدان ؟
ـ هل حدث شيء في الميدان ؟
ـ أنا اسألك ماذا حدث في الميدان ؟
ـ ماذا تريد ان يحدث في الميدان ؟
ـ الساعة عشرة الصبح ؟
ـ ماذا يمكن ان تفعل ؟ لا بد ان يمر الواحد من الميدان ، فـي الصبح او المساء .

كان الرجل يستمع الى الحديث . وقف على الناحية القريبة ، بينما هو يقلب الماء الساخن بسرعة ، يديره في الكوب ليطهره ـ اليس هذا هو المفروض ان يفعل ؟ ـ وعندما القى بالماء بعيدا عنه الى الارض المفروشة بالرمل ، كان الرجل ينظر اليه ، دون ابتسام ، عارفا . وجهه الداكن مغلق ، عيناه مدفونتان ، ليس فيهما مكـان للرحمة . عظامـه متينة ، فيما يلوح ، تحت القميص الرمادي المفتـوح خارج البنطلون الاسود المكوي . فمه المكتنز ، بشفتيه السوداوين تقريبا ، الشهوانيتين، كأنه على وشك الابتسام . لم يبتسم .
ـ هل حدث شيء ؟

كأنما حياته نفسها تتوقف على رد من الرجل .
ـ انفضل الشاي .
ـ آه . الشاي . الشاي هنا عظيم .
ـ أصيب أحـد ؟
ـ لمـاذا ؟
ـ فـي الميدان .
ـ الانسان دائما مصاب .
ـ لا . لا . أبـدا .

سقط نور الشمس ، مخففا ، من بين اغصان التعريشة ، علـى الوجه الداكن . هل هي ابتسامة ؟ أم لعب الضوء بعينيه ؟ رشف مـن الشاي ، ما زال سخنا ، وضع الكوب ، علـى رخامة المائدة المدورة ، ببطء .

ولم يرفع بصره من الارض .

على الرمل المبلول المسوى ، واضحة ، قاطعة الوضوح ، آثار اقدام اربعة ، مفلطحة ، غاصت في لدونه الرمل من ثقل كتلة الجسم العريض، تنتهي كل قدم بفرز عميقه في الارض ، مدببة الغور . المخالب المقوسة. على بعد خطوبين من عينيه .

وظلال الاوراق ترتعش بين استدارات الضوء الصغيرة المهتـزة ، جاءت اصوات خبط ودق معدني بعيد ـ دكـان سباك ، او ميكانيكي سيارات ، سروجي على الارجح ، لا بد انه سروجي سيارات ، السروجية لا تحتاج مهنتهم الى خبط ودق ، مبيض نحاس ، نعم ، او صائغ ، ربما، او بياع البسبوسة تحت المئذنة العتيقة ، اقام منصة حلواه اللينـه الندية بالعسل السريعة العطب جنب احجار الجامع السوداء الالفية . وارتفع زقاء ديك ، طويل ، في همود الظهر المبهم ، ينادي الفجـر . وتكرر صياح الديك في السكون ، مرة اخرى ، ومرة . لم يرد عليه نداء آخر . وحتمة هذا النداء لا تطاق . كل شيء يغمره سلام . وصمت . القهوجي على النصبة ، في الداخل المعتـم الرطيب ، يغسل الاكواب ويضع الصواني الصفراء التي تقطر ماء بعضها فوق البعض لها قرقعة نحاسية مكتومة الصدى ، مبتورة .
ـ حصل لنا الشرف
ـ الله يشرف مقدارك .
ـ مـن الناحية ؟
ـ أبدا والله . مررت من هنا مجرد مرور .
ـ قلت تاخد شاي ؟
ـ شاي عظيم .
ـ اهـلا وسهلا .
ـ تقول حدث شيء ؟
ـ أي شيء ؟
ـ أبدا . مجرد سؤال .
ـ حصل خيـر .

كان يصعد الى الحارة من سلالم ضيقة حجرية متهدمة ، ملبـدة بطبقة قديمة من التراب . وجر قدميه في بركة صغيرة موحلة من مـاء غسيل تتشربه الارض . ومر من تحت شرفة خشبية مائلة مهجورة ، تكاد تسقط من بين احجار مكومة في دور علوي مهدود . وعبر امام بقـال مظلم مدفون تنزل اليه سلمة الى الداخل ، وامامه صندوق كوكا كـولا احمر مقشر الطلاء . وصمتت النساء لحظة ، وهو يمر ، جالسات علـى العتبات المتربة يرضعن ويثرثرن بصوت عال مرتاح ممدود ، في فمصان نوم مقورة الفتحة واسعة باهتة . ذراعان ناعمتان تلقيان بماء وراءه ، من حلة كبيرة . وجه امرأة ، كأنها طفلة ، لكنه نسائي ، معابث ، غض، ساخر ، مشعث الشعر تحت المدورة التي تنتهي بكريات صغيرة مهتزة ملونة . ولد يقعي في وسط الحارة ، في طريق الذاهبين الآيبين ، وقد رفع جلابيته النظيفة حتى وسطه ، واستغرقه الجهد المستحوذ الـذي تركز فيه كل جسمه ، باستمتاع ، ورفـع اليـه عينين مستطلعتين ، غائبتين ، وجهه محتقن بالدم والجهد المريـح . ودار حول الخرابـة الفائرة الارض ، من وراء كوم تراب عال هبت عليه منـه رائحة العطن والبراز والصفيح الصدىء والارض التي ينتقع فيها الماء ، على مهل . هدد بيوت قديمة . وراءه علب الطوب الملونة بألوانها الفاقعة ، قـد اخذت منذ الآن ترث وتتشقق شقوقا رفيعة متعرجة سوداء .

أين يجده ؟ كيف يمكن ان يجده ؟ قال له انه في كل مكان ، فـي الميدان ، في حواري الحلمية، في شوارع شبرا ، تحت المتحف الزراعي، قال له في ساحات مصر الجديدة ، وفي الصاغة ، في اغوار الغورية ، نعم جنب الجيزة ، في جنينة الحيوانات ايضا ، مغفلا عليـه داخـل القفص وخارجه ، ايضا ، قال له عند الساعة في سليمان باشا ، وعند السفارات في العجوزة ، والزمالك وفي الازهر ، قرب قرابة الامـام ، وعلى العلو فـي العباسيه ، قال لـه في كـل مكان . الناس لا يعرفون ، خطوه بخطوهم ، رجله علـى رجلهم ، انفاسه فـي صدورهم الشرسة ونبضه هو نبض قلوبهم المحطومة . لا تفهم ؟ قال له انه يدخل الشارع ـ كل شارع ـ بأقدام واثقة تعرف انها تملك الشارع ، كل شارع . قال له باعين حنون قابضه ، يحتضن الناس ، سافاه الاماميتان عليهما شعر ناعم وملبد تفوح منه رائحة الحيـوان الوحشي الحريفة الزاعقـه ، شممنها ، قال له ، أنفاسه زخمة بخراء ، ولكنـك ، تعرف ، تحبها ، وتتشمها وتجد فيها طعما تريده . قال له تجد الاشلاء فيما بعد ، مرمية على التراب ، او على الاسفلت ، يرفعها عساكر المرور ويضعونها علـى الرصيف ، كلعمه عيس ، ويغطونها بورقتين مفرودتين من « الاهرام » ، او « الاخبار » ، قال له الناس تلقي بصفيحة ماء على الدم الـذي يسود لونه سريعا ، او يرشونه بقليل مـن الرمل او التراب ، وعجلات السيارات على اي حال سرعان ما تمحو كل اثر . قال له ان قطعا صغيرة ملوتة من ملابس الاطفال ، ممزقة ، يطير بها الهواء احيانا ، ويلفها الناس ويرمونها على جنب وتضيع ، بين قشر الترمس واللـب وورق كراسات التلاميذ الممزق . قال له ينسل من تحت البوابات العتيقة ، بين دكاكين الاحذية ، وشوالات العطارين التي تنفث روائح النوابـل والبهارات ، يحتك احيانا باكوام الذرة المغلفة بخضرتها، وتهتز عربات الترمس والذرة المشوي من صدمة جسمه بها ، علـى شط النيل ، بيـن المتنزهين والجالسين على العشب الناصل . قال له الناس لا تسرع ولا تجري ولا شيء ، قال له صرير صدره ، وزحيره، يتردد احيانا ، كأنه من الداخل، حيث لا يوجد في الشارع الا ضجيج المـرور ، كرير اجوف يتذبذب داخل اسطوانة القفص الصدري الوثيق ، ويلتفتون فـلا يرون شيئا ، هرير عميق به حشرجة طبيعية منتظمه ، ثابتة الايقاع . قال له ضربـة واحدة تجعل الرأس المبتور ، فاغرا عينيه ، صامتا ، يسقط بصدمـة مكتومة على ارض الشارع ، وتتحاشاه السيارات قليلا وتنفث الحميـر

التي تجر عربات الكارو ، في رعب مفاجا ، ثم تشتد الزحمة من جديد ، وتفلق الثغرة في المرور ، ولا يدري احد ، ولا يهتم احد حقا ما اذا كانت القرقعة الخفيفة الوزن ، التافهة في عراء الشوارع وصخبها ، جاءت من العظام المتهشمة ، او من فرقعة غازات العادم في السيارات ، او من خبط الابواب التي تصطفق ، قال له احيانا يجد الاولاد على الرصيف ، اسنانا منزوعة عليها تراب فليل ، فينظفونها ويلعبون بها يا شمس يا شموسة ، خدى سن الحمار وهاتي سن العروسة ، يا شمس يا شموسة ، خدي سن العريس وهاتي سن الجاموسة ، قال له زمجرته احيانا ترتفع في وسط النهار ، توقف كل شيء ، في دائرة ضيقة ، لحظة من زمن ، وتخرس كل شيء ، ويتكرر الزئير المحتشد بالخوف والتهديد معا ، ولا ينظر الناس الى بعضهم البعض ، ينصتون لحظة ، برغمهم ، كانهم لا يصدقون ، الى الصوت المفزع المروع معا ، ترتطم اصداؤه ، في لحظة الصمت والانكار ، بين الجدران والنوافذ ولوحات الاعلانات ، في قلب الميادين ، او في السكك المسدودة ، وتسمع احيانا اصوات الضلف والابواب الحديدية امام الدكاكين والواجهات تنزل بسرعة ، وابواب الشرفات تصطفق ، ولكنه بعد ذلك يعود فيسير ، بخطواته التي لا صوت لها ، مركب بطيء رشيق ضخم الجزم على النيل ، تتموج اشرعة جسمه ، بقوة ومعرفة ، وسط الناس الذين يعبرون اشارة المرور ، لا ينظرون اليه ، ولا يرونه ايضا ، يشب ، في خفة ، بين انوار الاتوبيسات الحمراء المتربة ، تنحرف له قليلا ، وتبطيء ، لتتيح له ان يعابثها ، مرحا ، شبعان . قال له خشخشة مخاليه تسمع احيانا ، في الليل ، على ابواب الشقق النائمة، ويستيقظ رب البيت ، فجاة ، على الصوت ، ويظن انه يحلم ، ويرفع رأسه قليلا من المخدة ، ويحبس انفاسه ، ينصت ويترقب ، قال له انه يعرف ، انه عرف . قال له صحيح .

في كل خلجة منه حس مهدد قريب بهذا العناق الاخير ، عندما تطبق عليه السيقان الشعراء الملتفة ، في حنانها المصمم الخام ، قاسية تؤدي واجبا لذلك قسوتها ضرورية ، تمسكه بمخدات الاقدام الناعمة المفلطحة ، مخاليها الحادة مغمدة في جرابها ، وتغمره الرائحة الحيوانية الزخمة التي لا فرار منها ، الرائحة الخصبية الكثيفة كثافة جسم يتحلل وتنسكب الى الخارج عصاراته الطازجة في اول لحظات الفساد الاخير ، ويلصق جسمه ، في قبضة كاملة الاحاطة ، بعضلات الصدر العريض ، تزخر فيه انفاس متضخمة الايقاع ، هادئة ، ويرتفع الكريه الاجش يملا العالم، وتسطع الرائحة الملبدة الثقيلة تسد كل شيء ، للمرة الاخيرة ، فى حضن يضغط تلك الضغطة الرحيمة المهشمة النهائية التي يظلم فيها كل شيء .

ومواكب الناس تمر به ، في باب الحديد ، كل الى وجهته ، في وحدتهم واندماجهم معا ، ماذا يفعلون ؟ هذه الوجوه التي لكم ، منحوتة، مضلعة ، منبعجة ومضغوطة ، عرتها الوحشة والقسوة وجففتها ، شققها العرق وخط فيها الالم والشبق أخاديد لا تمحى ، هبت عليها وفتتتها اعاصير الشهوات والآمال الآمرة ، وانها كادت التحقق والاحباط معا ، كلها لا تفي بشيء وتترك الجوع متقدا لا ينطفيء ، عطشانة دائما ، ويابسة ، ذابلة ، متطاولة ، مسحوقة ، غضة ، متهدلة ، مشدودة في ابناع الصبا ، فتوة النضج ، اشراقة خاطفة تمتلىء بعدها باللحم المتلمظ وتغص بالتجشؤ العفن ، هذه العيون الطاردة ، والمختبئة ، والمتربصة ، والمقتحمة ، والجامدة ، ارواح محبوسة في حفر قبورها ، تتوائب وتخمش وتنبح وتزار وتكركر بضحك الضباع ، من غير صوت ، ارواح تنادي ، بصوت مكتوم . تنويعات شائهة على اصل بسيط وجليل قائم عند اساس صخر الجسم الذي يتحات وتسقط عنه فتات الحجر لتترك مسوخ النقوش المعراة ، طبقة بعد طبقة . ماذا يفعلون ؟ الى اين يذهبون ؟

الوحش الذي يسكن قاع قلبي نرتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب ، ثم تتهدم الامواج . قال له ان المركب لا بد ان يسير . اين سفينتي ؟ قال له ان الصيف جاء مبكرا هذا العام واننا بالليل سنعود الى بيوتنا ، وننام . قال له ماذا تريد ان يحدث ، كلنا لا بد ان نمر من الميدان .

عندما عبر الشارع امام سينما مترو ، دخل الممر الضيق ، بين الحيطان المرتفعة المعتمة . اوراق الشارع ونفاياته النظيفة الجافة قد كنست وجمعت في كومة صغيرة غير منتظمة ، جنب الرصيف ، على البلاط المغبر القديم . ومر بذهنه انه لم ينزل قط ، ولم يصعد قط ، مثل هذه السلالم الحلزونية الحديدية التي تدور وتدور مرتفعة الى ظلمة فوقية غامضة الى سطوح حادة لا منفذ فيها ، في المغرب البرونزي الصدىء القاتم الخضرة . كانت قدماه ، من التعب والغياب ، تختطان به طريقا غير مستقيم ، واصطدام كتفه بصناديق الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة في اكوام قلقة حرجة تهدد بالانهيار . وكانت الدكك الخشبية على الابواب ، فارغة لا يجلس عليها احد ، لامعة مصقولة مجوفة في وسطها قليلا من طول جلسة اجيال متعاقبة من البوابين المنسيين .

كانت تجلس على الارض ، ترضع ابنها ، صعيدية ، سوداء ، مجعدة وجافة ، تنحني عليه بلا اهتمام ، في حركة حنان لا يطاق ، لا يبرر شيئا ولا يبرره شيء ، ثدي صغير داكن متهدل ، مشقق بالفضون الذابلة ، وطريّ مع ذلك يحمل عصارته ، حقيبة لحمية ملآنة مقددة الجلد ترتطم بعظم الصدر ويمصها الفم الشره دون هوادة ، انثى حيوانية هزيلة ولكن عينيها تلمعان لمعة غير حيوانية ، من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه ، من جفاف انتزاع العطاء من بئر ضحلة ، وباس الاقتراب والابتعاد ، بلا نهاية ، من الاشباع الذي يعد وينكث وعده ، وينسى ويعود ، في تكرار فقد كل نضارة وكل جدة . يرتفع بجانبها قفص جريد انكشفت اضلاع الخوص الرفيعة فيه ، متخاذلة ومصلوبة في رقتها ، لا تتهاوى ، مفروشة عليه بضع صحف يومية ، وكتاب « الشعب » بعناوين كوفية وصورة مثدنة سامقة ، اصفرت جلدته وتلوت اطرافها من الهواء السخن . وجهها الاسود المتهضم مضيء بصبر آخر ، والولد على حجرها ، مضغة تبدو لا اهمية لها ، يتشبث ، سمكة على حافة شط جاف به ماء قليل ، يدفع بساقيه وقدميه .

اقول لك سيدتي ، حبي ، امي . سخف هش مثير للضحك . اقول لك انني اعتذر ، انني آسف ، وحزين . عبث . لست اقول لك شيئا ، ولا استطيع . ما ارخص هذه الدموع التي لا تريد ـ مع ذلك ـ ان تنسكب . لست اعرفك ، يا امي ، لا شان لك بي ، لا شيء يصل بيننا ، كل دعوى اخرى باطلة . قال له الوحش سفينة تبحر بنا في مياه مجهولة . والعالم وحش ، والالم . ولا هذا ايضا . لا .

كان يمشي ، في آخر نور المساء ، في طريقه الخاوي الذي تحيط به الاشجار ، لا ينتهي ، موحشا ، ليس فيه شيء ، على الرصيف وتحته برك جافة من الحبوب الصفراء الدقيقة التي تسقط من اشجار الكازورينا في الصيف ، يهب بها هواء اول الليل فتطير وتحط على اسفلت الطريق . مصابيح الشارع مضيئة زرقاء في ضوء السماء الاخير ، كرات زجاجية تشع بنور لا جدوى فيه ، وهو يسير ، نائما ، مغمض العينين ، في ارهاق كامل وصل به الى حدود الحلم ، في غيبة لا يوجد فيها الا جسمه ، وحش مهدود ، يمضي دون ارادة ، دون مخالب ، دون عقبة ، دون وصول ، بلا انتهاء . يحس السيارات تمرق من على جانبيه ، في حلمه ، صامتة ، اصواتها خافتة ومتمكنة في قوتها ، يحس الناس على الرصيف غرباء واخوة ، يأمن لهم ، ظلالا قاتمة في نور وعيه الداخلي الخافت ، عاكفين على طريقهم ، دون توقف ، ودون اسراع .

نداء يهتف به :

ـ ادوار .. ادوار ..

الصوت في هدوء الشارع ياتيه في الحلم ايضا . حلم فسيح معتم ، الصوت نافورة تنبثق بين جدران كثيفة ، يرتطم ماؤها بالحجر الصلب القديم ، ويسقط .

أهو نداء باسمة في الليل ؟ لا ، ليس هو . اسمه غريب عنه ، ما صلته به ؟ والصوت غريب .

ودون ان يفتح عينيه ، كان يبدو له ان البيت بعيد .

القاهرة

ادوار الخراط